

السياسة الخارجية لبيزنطة في عهد الإمبراطور (ميخائيل الثالث)

إعداد:

دكتورة/ سامية عامر

أستاذ مساعد تاريخ العصور الوسطى
كلية التربية بورسعيد
جامعة قناة السويس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾

صدق الله العظيم.

تميزت السياسة الخارجية لبيزنطة في عهد الإمبراطور ميخائيل الثالث بقدر كبير من الهدوء النسبي نظراً للتغير الذي طرأ على مسار الحياة في بيزنطة آنذاك، فقد أعقب وفاة الإمبراطور ثيوفيل ٨٤٢م، وتولى ابنه الطفل ميخائيل الثالث مقاليد الحكم بوصاية أمه الإمبراطورة ثيودورا وخاله برداس عودة قوية إلى الإيقونات في الوقت الذي حرص فيه برداس على عزل ميخائيل الثالث ابن أخته عن كافة أمور الحكم والسياسة أو التدخل في الأمور الدينية؛ وذلك بالزج به في عالم من الخمر والفسق والمجون لدرجة أن لقبه البيزنطيون باسم ميخائيل السكير، فعاش هذا الطفل مغيباً عن كافة أمور الدولة ولم يكن له اسم ولا نفوذ حتى ضاق ذرعاً بهذه الحالة وتنبه إلى أن خاله يعتمد ذلك ليدخله الجو تماماً في حكم البلاد. وقد لعب القائد العسكري باسيل المقدوني^(١) دوراً كبيراً في تأكيد هذه الأفكار في ذهن ميخائيل الذي ما إن بلغ من العمر ثلاثة عشر عاماً حتى دبر مؤامرة لقتل خاله برداس بمساعدة باسيل المقدوني وبذلك تخلص من سيطرته ووصايته نهائياً ولم يكن هذا هو الانقلاب الوحيد بل ثارت أمه أيضاً الإمبراطورة ثيودورا على اللايقونين وأعدت الحركة الأيقونية بكامل قوتها إلى البلاد كما أعادت الصور المقدسة إلى مواضعها في الكنائس وعزل البطريرك اللايقوني "حنا النحوي" لتدخل بيزنطة بذلك في مرحلة جديدة وخطيرة ترتب عليها المزيد من حالات الاضطهاد للايقونيين الذين اضطروا معظمهم إلى الهرب خارج البلاد^(٢).

ولكن لم يستمر هذا الحال طويلاً إذ سرعان ما استقرت بيزنطة وهدأت الأحوال، وبدأ ميخائيل الثالث جهوده العسكرية لتأمين حدود البلاد وذلك بمساعدة قيادات عسكرية ناجحة أضافت الكثير إلى قوة بيزنطة وهيمنتها في الداخل والخارج وقد بدأ مشروعه الضخم بتوجيه عدة حملات ضد الروس والخزر والصقالبة والبلغار وغيرهم من شعوب شرق أوروبا بالإضافة إلى استغلال حالة ضعف الخلافة العباسية وتوجيه عدة ضربات لها في منطقة البحر المتوسط وأعالي الفرات.

(1) Ostrogosky G., A History of Byzantine State Trans by Hussey, Oxford, 1956, p. 200.

(2) Leo nard, A., Dictionary of Greek and Roman Biography and Mythology, Boston, 1867, pp. 115-122.

ونبدأ بالسياسة الخارجية لميخائيل الثالث ضد الروس ضد الروس الذين دأبوا على الإغارة على حدود بيزنطة مستغلين انشغال الإمبراطورية بالحرب ضد اللايقونية، حيث أرسل الروس حملة عام ٨٦٠م للإغارة على القسطنطينية وقد أدرك ميخائيل الثالث خطورة الموقف فتحرك بسرعة وجهاز حملة شرسة أجبرت الروس على الفرار وحماية القسطنطينية من خطر محقق، هنا أيقن ميخائيل الثالث أنه لو نجح في استقطاب الروس نحو الديانة المسيحية على المذهب الأرثوذكسي^(١) ربما يستطيع أن يضمن ولائهم له، هذا في الوقت الذي وصلت له دعوة من زعيمهم رودريك Rodrick الذي أسس دولة قوية عام ٨٦٠م بالقرب من مدينة ها نوفجورود Novgorod، بالإضافة إلى مدينة كييف، تلك الدعوة حملت رغبة الروس في إقامة علاقات اقتصادية قوية بين الروس وبيزنطة لإنعاش حركة التبادل التجاري بينهما عبر البحر البلطي والقسطنطينية بالإضافة إلى إعلان رودريك زعيم الروس رغبته هو وشعبه في دخول المسيحية على المذهب الأرثوذكسي وقد رحب ميخائيل الثالث بهذه الدعوة على الفور حيث أرسل بعثة بقيادة القديس كيريلوس Kyrilus والقديس ميثوديوس Methodios كلفهما ببذل كل الجهد للتبشير بالمسيحية على مذهب الكنيسة الشرقية وقد عمل القديسان على تطبيق مشروع ثقافي ناجح بدأ بتعليم مبادئ اللغة السلافية وهي خليط من اليونانية والقبطية والعبرية، وذلك عن طريق فتح مراكز تعليم الحروف الأبجدية الأولى لهذه اللغة التي عرفت فيما بعد باسم لغة كيريلوس أو (كيريلك) وهي اللغة التي أصبحت الأساس الذي بنيت عليه جميع اللهجات السلافية الحديثة، كما قام هذان القديسان بترجمة الإنجيل والرسائل والمزامير إلى اللغة السلافية لتكون هذه الكتب هي بداية التراث الحضاري للشعوب السلافية ثم عين القديس كيريلوس بعد ذلك بعض تلاميذه أمثال كلمنت Clement ونأوم Naom لتكملة هذا المشروع الثقافي الديني الكبير، وسمحوا بالفعل في جعل هذه المناطق تابعة للبطريركية المسكونية في القسطنطينية وطبق فيها كل القوانين المعمول بها في كنيسة القسطنطينية وقد تطورت هذه الكنائس وارتقت إلى درجة البطريركيات وذلك بتشجيع من الكنيسة الشرقية والإمبراطور البيزنطي نفسه.

(1) The Oxford Dictionary of Byzantium, Oxford Univ. Press, 1991.

أما عن علاقة ميخائيل الثالث بالصقالبة ^(١) وهم شعوب تسكن مناطق عديدة من شرق أوروبا ومنهم التشيك والبولنديون والسلوفاك والكروات وغيرهم ، فإنه على الرغم من الخشونة الرعوية التي تميز بها معظم هؤلاء الشعوب إلا أنهم تحولوا في الفترة المعاصرة لحكم ميخائيل الثالث إلى حالة من التحضر والرقي واستقر معظمهم في المنطقة الواقعة ما بين نهري الدون والدينبر كماً أبدوا استعداداً كبيراً لترك الوثنية وطلبوا مثل الروس من الإمبراطور ميخائيل أن يرسل لهم من يعلمهم الدين المسيحي، ويرى بعض المؤرخين أن في هذا المطلب مغزى سياسي كبير حيث أثر الصقالبة أن يقيموا علاقة قوية مع بيزنطة أفضل من أن يقعوا بين شقي الرحي المتمثل في نفوذ الفرنجة من ناحية والبلغار من ناحية أخرى، لذلك ولأن الهدف لم يكن خالصاً للدين المسيحي وحده لم تتجح البعثة التي أرسلها ميخائيل الثالث إليهم ولم يقبل على الدين المسيحي إلا عدد قليل من شعوب الصقالبة، بل انتهى أمر هذه البعثة بالفشل الذريع حين سمع هؤلاء بمقتل الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثالث على يد أحد قواده وهو باسيل المقدوني فعادت البعثة دون تحقيق أي قدر من النجاح في تحويل عقيدة هذه الشعوب إلى المسيحية الأرثوذكسية.

أما عن علاقة بيزنطة شعوب الخزر فقد اتسمت بالمودة والدبلوماسية، فقد كانت الديانة اليهودية ديناً رسمياً لهذه الشعوب، وفجأة أرسل خاقان الخزر ^(٢) إلى الإمبراطور ميخائيل الثالث يطلب منه هو الآخر إرسال مبعوثين لتعليم شعبه مبادئ الدين المسيحي ورغم الاهتمام الكبير بأمر البعثة التي ذهبت هناك بقيادة القديس قسطنطين أحد تلاميذ البطريرك فوتيوس Photios إلا أن المصادر تشير إلى ضعف الاستعداد لدى الخزر لتقبل مهمة هذه البعثة نظراً لوجود ديانات سماوية أخرى مثل الإسلام واليهودية، كانت منتشرة بين هذه الشعوب رغم أن رئيس البعثة وهو قسطنطين بذل قصارى جهده قبل الرحيل في تعلم لغة الخزر، وقطع باقي أفراد البعثة آلاف الأميال في طرق وعرة وصعبة عن طريق نهر الدون - الفولجا إلى ساحل قزوين، من أجل تحقيق هذه المهمة لكن دون جدوى حيث لم يتجاوز عدد من دخل المسيحية ٣٠٠ فرد وبقي الخزر على اليهودية

(1) Mor Fill, W.R. Poland, London, 1863, pp. 4-12.

(٢) دنلوب: ب : دولة يهود الخزر، ترجمة - إبراهيم غريفة، دمشق ٢٠٠٥، ص ٢٨-٣٥

وأيضاً Elaplog. Com/ Posts. As PX.

والإسلام ولكن استمرت العلاقات الخارجية مع بيزنطة هادئة دون الدخول في مشاحنات أو علاقات عدائية طوال عهد ميخائيل الثالث.

أما دولة البلغار فقد اتسمت علاقة الإمبراطور ميخائيل الثالث معهم بالعداء الشديد حيث نظر البيزنطيون للبلغار على أنهم العدو التقليدي الذي يهدد أمن بيزنطة من جهة نهر الدانوب^(١) بالإضافة إلى طموح البلغار في توسيع ممالكهم على حساب بيزنطة حتى لو كان بالتعاون مع دولة الفرنجة وإقامة تحالف معها ضد ميخائيل الثالث الذي لا يهدد أمن بيزنطة فقط ولكن يهدد أيضاً الكنيسة الشرقية برمتها لاحتمال دخول البلغار المسيحية على المذهب الكاثوليكي^(٢) لذلك خرج ميخائيل الثالث بنفسه على رأس حملة ٨٦٣ لمهاجمة بلغاريا من جهة البحر الأسود وكان الحظ حليفه نظراً للاضطرابات الاقتصادية والمجاعة التي كان يعاني منها البلغار من ناحية، ولاضطرار بلغاريا إرسال أعداد كبيرة من جيوشهم إلى بلاد الفرنجة طبقاً للحلف العسكري المبرم بينهما من قبل^(٣) كل هذه الأمور رجحت كفة الإمبراطور ميخائيل الثالث فاضطر ملك البلغار ويدعى موريس Moris إلى عقد صلح مع الإمبراطور البيزنطي دخلت بلغاريا بمقتضاه في الدين المسيحي على المذهب الأرثوذكسي^(٤) وأجبر البلغار على إلغاء الحلف مع الفرنجة وعقد صلح عام ٨٦٤ حضره رجال الدين اليونانيون^(٥) وشكلت بعثات دينية لتعليم المسيحية على المذهب الأرثوذكسي في بلاد البلغار، وتحولت العلاقات بين الطرفين إلى المودة والصداقة^(٦) حيث يشير المؤرخون إن هذا الهدوء استمر ما لا يقل عن ٢٠٠ عام حين خرجت بلغاريا من كبوتها أواخر القرن العاشر الميلادي وأصبحت قوة عظمى تنافس بيزنطة في الهيمنة على أراضي شبه جزيرة البلقان^(٧).

(1) Miller, W., The Balkans, London, 1908, pp. 133-142.

(2) Ostrogosky, op, cit, p. 205.

(3) Bury, J.B., History of the Eastern Empire, London, 1923, p.384.

(4) Gjuzeev, V., Medieval Bulgaria, Genoa, 1988, pp. 36-39, Cam. Med. Hist. Vol. 4, p. 327.

(5) Runciman, S., A History of the First Bulgarian Empire, London, 1930, pp. 98-103.

(6) Bulgarian Historical review, published by Bulgarian Academy of Science, Volume 33, p. 1-14.

(7) John, V.A., The early Medieval Balkans, Ann Arbor, 1983, pp. 66-69.

أما العلاقات السياسية بين المسلمين والبيزنطيين في عهد الإمبراطور ميخائيل الثالث فقد اتسمت بالهدوء النسبي^(١) في أواخر القرن التاسع الميلادي/الثالث الهجري حيث لم تشر المصادر إلى أي غزوات قام بها بنو العباس ضد الدولة البيزنطية ويرجح المؤرخون أن هذه هي الفترة التي انتهت فيها فروسية بني العباس أو خفت حدتها، بل أن البعض يقول إن معظم الخلفاء كانوا يميلون إلى الروم باعتبار أن أمهاتهم^(٢) كانت روميات الأصل مثل هارون الواثق الذي عزف عن معاداتهم إكراماً لها، في حين يرى البعض الآخر أن هذا يرجع إلى انشغال الخلافة العباسية في مشاكلها الداخلية وما خيم عليها من جمود وتقاعس خاصة في آسيا الصغرى في الوقت الذي لم تكن فيه الإمبراطورية البيزنطية أحسن حالاً من المسلمين^(٣). ولكن هذا لم يمنع من وجود صور عديدة للاحتكاك العسكري بين الروم والمسلمين^(٤). حيث قام الروم بمهاجمة جزيرة كريت أقرب المعاقل الإسلامية من حدود بيزنطة^(٥) ففي مارس ٨٤٣م/٢٢٨م قام الوزير البيزنطي ثيوكتستوس بحملة بحرية ضخمة لمهاجمة كريت وقد أراد ثيوكتستوس من ورائها تحقيق مجد سياسي وعسكري لنفسه أولاً. حيث تقدم فعلاً نحو كريت ولم يلق مقاومة تذكر^(٦)، ونزل على شواطئ المدينة واحتل جزءاً من

(1) Zonarae, J, Opera Omina, H. C.D. in Patrologiae, Tomus, 135, Belgium pp. 52-54.

أنظر أيضاً فازيليف: العرب والروم، ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة، مراجعة د/فؤاد حسين علي طبعة دار الفكر العربي، بطر سبرخ ١٩٠٠م ص ١٦٩.

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق، ج٦، ص ٧٣، ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٧٤٢؛ أنظر أيضاً: أومان: الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة د/مصطفى طه بدر، دار الفكر العربي، ١٩٥٦؛ ص ١٦٥، والجدير بالذكر أنه فيما يتعلق باسم ثيودورا فقد اختلفت المصادر العربية في اسمها فأحياناً تذكر ثيودورا أو تدورة.

(٣) أومان: المرجع السابق، ص ١٦٥-١٦٦؛ محمود سعيد عمران (دكتور) معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، بيروت، ١٩٨١، ص ١٣١، جوزيف نسيم يوسف (دكتور): تاريخ الدولة البيزنطية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٦؛ ص ١٤٢؛ أسد رستم: حرب في الكنائس، بيروت ١٩٥٨؛ ص ٥٨-٥٩؛ أحمد الشامي: المرجع السابق، ص ١٧٠؛ ماجد: المرجع السابق، ص ٤٣٤.

(4) Grenier, P. L'empire Byzantin, Paris, 1904. p.162.

(5) Baynes and Moss Byzantium, An introduction to East Roman civilization, London 1926, p.20.

(6) Monachus, G. Monachus, Vita Recentiorum In Theophanes cont. C.S.H. B. (-1828), p.814; C also; Jenkins, R, Byzantium, the imperial Centuries, London, 1966, p.157.

الجزيرة وأقام فيها إدارة بيزنطية تابعة له، وكادت أن تتجح خطته في ابتلاع كريت لولا قيام أهل الجزيرة لإنقاذ مدينتهم إذ أشاعوا داخل كريت ووسط الجيش البيزنطي أن الإمبراطورة ثيودورا قد جعلت من أحد منافسي ثيوكتستوس شريكاً لها في الحكم الحكم وأنها أبعدته متعمدة لِيخلو لها الجو فأسرع ثيوكتستوس بالعودة إلى القسطنطينية ^(١) مما أعطى الفرصة للمسلمين من تدمير أسطوله تماماً رغم انشغال أسطول كريت بحروبه في بحر إيجه ضد السواحل والجزر البيزنطية ^(٢).

وفي الحقيقة فقد وقع عبء الجهاد ضد البيزنطيين على دولة الأغالبة ^(٣)، حيث تولى إبراهيم بن أحمد الأغلب مهمة الجهاد وجهاز الجيوش والسرايا التي لم تتوقف طيلة عهده الذي امتد تسع عشر سنة. ففي عهده فتحت مدينة هامة بجوار بلرام ^(٤) وهي مدينة مسنية أو مسيني ^(٥) Measana عام ٢٢٨هـ / ٨٤٣م وترجع أهميتها إلى وجود ميناء يقع على مضيق مسني في رأس الجزيرة ويحيط بها الجبال جهة الغرب وقد بدأ غزو مسني بحملة قام بها الفضل بن جعفر الهمذاني وكانت حملته برية وبحرية بهدف الاستيلاء على المدينة ونزل فعلاً في مرسى مسيني وغنم غنائم كثيرة ^(٦)، كما استأمن أهل نابل ^(٧) لقوتها،

(١) إبراهيم العدوي (دكتور): الأساطيل العربية في البحر المتوسط، القاهرة، ١٩٥٧، ص ١٠٢، فازيليف: العرب والروم، ص ١٧٢.

(٢) مؤسس هذه الدولة هو إبراهيم بن الأغلب على عهد الخليفة هارون الرشيد حيث أرسله إلى تونس لقمع ثورات البربر والأدارسة فاستولى عليها وأزال ملك العباسيين إلا اسم الخلافة وللمزيد أنظر حسن إبراهيم: المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٩٦.

(٣) بلرم : هي أعظم مدن جزيرة صقلية في بحر المغرب لها سور شاهق وبها العديد من الشوارع الضخمة الواسعة وبها عشرة مساجد وللمزيد أنظر ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ١، ص ٥٧٣.

(٤) مسنية : بلدة على ساحل صقلية مما يلي الروم مقابل ربو وهي بلد في القسطنطينية والواقف في مسني بري ربو، قيل أن طولها ٣٩ درجة وعرضها ٣٨ وللمزيد أنظر ياقوت الحموي: ج ٤، ص ٤٤٦، أنظر كذلك ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، المجلد الرابع ص ٤٣١، دار الكتاب اللبناني ١٩٦٨.

(٥) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٦، ص ٧٥، أنظر أيضاً Ostrogosky G., A History of Byzantine State Trans by Hussey, Oxford, 1956, p.195

(6) Bury, op. cit, p. 313;

(٧) كانت مدينة نابلي شديدة الخصوبة وهي تابعة لإيطاليا ويقم فيها الشريف ومنها كان يحكم صقلية فإذا وصل الشريف إليها يغادرها دوقها إلى صقلية وللمزيد عنها أنظر: قسطنطين السابع إدارة الإمبراطورية البيزنطية، عرض وتحليل د/ محمّد سعيد عمران، بيروت، ١٩٨٠، ص ١١١.

وفي الحقيقة تشير بعض المصادر إلى أن أهل نابلي^(١) هم الذين سعوا لعقد تحالف مع الفضل الهمذاني.. ورغم عدم وضوح الدوافع لهذا التحالف^(٢) إلا أن الروايات العربية تشير إلى أن نجاح قوات الأغالبة في دخول حدود مسينا هدد جنوب إيطاليا بأكمله وأجبر نابلي على طلب الصلح حيث كانت تعاني من الصراعات العنيفة مع جيرانها مما كان له أثر خطير في طلب التحالف مع المسلمين يعد تخلصهما من الخطر اللمباردي.. في حين يذكر ابن الأثير أنهم اضطروا لعقد الصلح حيث كلف الفضل مجموعة كبيرة من رجاله استدأروا خلف جبل مظل على نابلي وصعدوا إليه ونزلوا إلى المدينة وأهل البلد مشغولون بقتال جعفر فلما رأوا ذلك فتحو أبواب المدينة وعقدوا الصلح قهراً وليس رغبة منهم كما أشارت بعض الروايات^(٣).

بعد ذلك تقدم الفضل وحاصر مدينة مسكان واستولى عليها، كما هاجم الأغالبة مدينة شرة^(٤)، فقاتله أهلها قتالاً شديداً، ولكن صمد المسلمون وهزموا الروم فيها وقتل منهم ما يزيد عن ١٠,٠٠٠ رجل واستشهد من المسلمين ثلاثة ويقول ابن الأثير أنها كانت مدينة قوية ولم يكن بصقلية مثها^(٥).

وقد ظل الفضل بن جعفر يحكم خططه لإسقاط مسيني ففي عام ٢٣٢هـ/٤٧م وصلته أنباء أن أهل تلك المدينة تحالفوا مع بطريك صقلية لينصرهم على المسلمين، فقال لهم "سأتي إليكم بجيوشي والعلامة لوصولي أن توقد النار ثلاث ليال على الجبل الفلاني"^(٦)، فإذا وصلت تكاتفت جيوشكم معي ونزلنا على المسلمين بغتة"، فلما علم الفضل أرسل من أوقد النار ثلاث ليال وأعد خطة عسكرية لملاقاة أهل مدينة ليونيتي^(٧) ومسيني الذين خرجوا للقتال فلم يجدوا سوى المسلمين وانتظروا وصول البطريرك واشتدت الحرب وهزم

(١) Bury, op. cit, p. 313; انظر أيضاً إبراهيم النعدي: المرجع السابق، ص ٧٩-٨٠.

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٦، ص ٧٥، أنظر أيضاً

Ostrogosky, op. cit, pp.157-158

(٣) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٦، ص ٦٥.

(4) Bury, op. cit, p. 313;

(٥) وأنظر ابن خلدون: العبر، المجلد الرابع ص ٤٣١.

(٦) فازيليف: العرب والروم، ص ١٨١.

(٧) مدينة هامة تقع في القسم الشرقي من الجزيرة بين قسطنطينا وسرقوسة للزبيد انظر

فازيليف: العرب والروم، ص ١٨١.

أهل مسيني فرقة صغيرة من المسلمين، وكانت خطة الفضل استدراك باقي جيوش مسيني، وخرج كل أهالي المدينة فطوقوا من قبل المسلمين وأعمل السيف فيهم، فطلبوا الأمان على أنفسهم، وأجابهم المسلمون إلى ذلك وسلموا المدينة^(١). وقد أقام المسلمون فترة من الوقت بمدينة تسمى طارنت من أرض انكبردة^(٢). وسكنوها. وكانت هذه ضربة قاصمة للإمبراطورة ثيودرا وسياستها الفاشلة، ناهيك عن مؤامرات ودسائس القصر الإمبراطوري.

كما هاجم أسطول الأغالبة مدينة قلورية^(٣) جنوب إيطاليا^(٤) وتمكنوا من مهاجمة مراكز عديدة فيها واستولوا على كثير من المدن والحضون منها باري^(٥) Barium، وكانوا قد أغاروا عليها من قبل وأعطت لهم القدرة على التحكم في مدخل بحر الأدرياتيك^(٦)، أو ما يسميه العرب بخليج البنادقة نسبة إلى مدينة البندقية، وقد حاول البنادقة إيقاف هذا الزحف فاستعانوا بالروم^(٧)، وأغاروا على

(١) Bury, op. cit, pp. 316-307; CF. also; Baynes and Moss, op. cit, pp.18-19. أيضاً لويس ارشيباليد: القوى البحرية والتجارية في البحر المتوسط (٥٠٠-١٠٠م) ترجمة أحمد محمد عيسى؛ مراجعة محمد شفيق غيربال، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٢١٤؛ أحمد رمضان (دكتور): تاريخ في القتال البحري في البحر المتوسط في العصر الوسيط، مطبعة هيئة الآثار، ص ٢٣ وللمزيد عن مراحل الصراع بين أهل مسيني والفضل بن جعفر انظر ابن الأثير: ج ٦، ص ٧٥-٧٦.

(٢) انكبردة: بلاد واسعة للفرنج ما بين الأندلس والقسطنطينية على طرف بحر الخليج بمحاذاة جبل التلال وتمر على محاذة ساحل المغرب شرقاً إلى أن تتصل بلاد قلورية وللمزيد انظر ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٦، ص ٧٦، فازيليف: العرب والروم: ص ١٨٠؛ إبراهيم العدوي: الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، ص ٩١، وانظر ابن خلدون: العبر المجد الرابع ص ٤٣١.

(٣) قلورية: جزيرة تقع شرقي صقلية داخلية في البحر على شكل مستطيل من أشهر مدنها قسانة وقطرونية وستانة وبها جنسيات مختلفة وللمزيد عنها انظر ياقوت: المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٤٦.

(4) Bury, op. cit, p. 316.

(5) Bury, op. cit, pp. 313-316.

(٦) أشار فازيليف إلى تردّي أحوال الإمبراطورية وفشل ثيودرا في إنقاذ الموقف ضد عرب صقلية مما دفعهم إلى الصلح والمهادنة مع المسلمين انظر فازيليف: العرب والروم، ص ١٣٥، وواصل الأغالبة غاراتهم على قلورية وما حولها، انظر ابن خلدون: العبر: المجلد الرابع ص ٤٣٣.

(٧) أشار بيوري إلى عقد أحلاف عسكرية بين البنادقة والروم منذ أمد بعيد وللمزيد انظر: Bury, op. cit, pp. 313-326.

سفن الأغالبة ودارت معركة حاسمة انتصر فيها الجيش العربي على جيش الروم والبنادقة وهلك الكثيرون.

ورغم أنه قد سبق وسلم له أهل مدينة نابلي^(١) إلا أنهم سرعان ما أعلنوا التمرد على المسلمين بسبب استخدام سواحلهم كقواعد لأسطولهم الأمر الذي دفع بنابلي إلى التحالف مع باقي المدن الإيطالية المجاورة وكونوا أسطولا ضخما لمقاومة خطر المسلمين^(٢)، فلم يطل خضوع أهل نابلي للمسلمين بسبب ذلك الحلف العسكري الضخم الذي أجبرهم على التخلي عن مواقعهم بسواحل المدينة.

وفي عام ٨٤٦م/٢٣١هـ أغار الأغالبة على مدينة روما التي كانت تتمتع بحصانة شديدة^(٣)، وكان يحيط بها عشرة أبواب ضخمة من الرخام الأبيض وتعلوها الأعمدة ويكثر فيها الكنائس^(٤)، وأشهرها كنيسة طولها ألف ذراع في خمسمائة وعرضها مائتي ذراع ويرجح أنها الفاتيكان مركز البابوية ويوجد بها قبر الحواريين بطرس San Peter وبولس San Pools ويقال إنهما مدفونان في أجران من الرخام الأبيض بحيث يراهم الناس^(٥)، وتشير المصادر إلى أن الأغالبة في غزوهم لروما اتجهوا أولاً نحو سردينيا^(٦)، وجعلوا منها قاعدة عسكرية دائمة لهم. ومنها اتجهوا شمالاً بحذاء الساحل الإيطالي واكتسحوا في طريقهم عدداً من الموانئ الهامة ودخل أسطولهم نهر التيبر الذي يشق روما ويسمى أيضاً نهر رومية ويطلق عليه في بعض المصادر نهر قسطنطين^(٧)، وتشير بعض الروايات إلى أن العرب دخلوا روما نفسها وأحرقوا المدينة ونهبوا ذخائرها^(٨)، وعبثوا بقبور القديس بطرس بولس وقبور البابوات وأثاروا الذعر

(١) ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٧٨٨.

(٢) فيليب متى: العرب تاريخ موجز، بيروت ١٩٤٦، ص ٢٠٢، فازيليف: العرب والروم، ١٨٥.

(٣) Ford, op. cit, p. 231.

(٤) Bury, op. cit, p. 314.

(٥) Bury, op. cit, p. 314. وأيضاً فازيليف العرب والروم، ص ١٨٥.

(٦) سردينيا جزيرة كبيرة في بحر المغرب أكبر من صقلية وأقريطش غزاها المسلمون وملكوها سنة ٩٢هـ واستفاد منها الأغالبة في غزواتهم وهي الآن بيد الفرنج وقيل إن سردينيا مدينة أخرى داخل صقلية وللمزيد انظر ياقوت: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٣٦.

(٧) Decline, 6 pp. 42-45. وأيضاً فازيليف: العرب والروم، ١٨٥.

(٨) Foord, op. cit, p. 231.

في المدينة^(١)، ويشار أيضاً إلى أن العرب قاموا بحملة أخرى أكثر إعداداً وتنظيماً ونزلوا في ميناء أوستيا Ostia قرب روما^(٢)، حيث التقى أسطولهم بأسطول الروم ويقال أن جنوا وبيزا والبندقية وقفت إلى جانب البابا هذه المرة. حيث كان هذا مقدمة لأحلاف عسكرية عقدتها هذه المدن مع الإمبراطورية أيضاً^(٣)، وقد كان من سوء حظ المسلمين أن هبت عاصفة قوية دمرت بعض مراكب العرب فهزموا واضطروا إلى الانسحاب^(٤)، وقد بالغ أهل روما في الاحتفال بانتصارهم على العرب في هذه الموقعة لدرجة أنهم قاموا بعمل احتفال ضخم للقديسين علقوا فيه أسلحة العرب حول المذبح^(٥)، وصورت هذه الأحداث في لوحة معلقة في كنيسة الفاتيكان بريشة الفنان الإيطالي رفايلو Raffaello ورغم هذا فلم يأمن الروم خطورة العرب واستعدادهم لمعاودة الكرة رغم الهزيمة فتشير المصادر إلى أن البابا يوحنا الثامن John VIII^(٦)، أراد أن يبعد العرب نهائياً عن روما فاضطر إلى الالتزام بدفع جزية لهم لمدة عامين^(٧).

في نفس الوقت الذي حاولت فيه بيزنطة استرداد جزيرة صقلية أرسلت حملة عسكرية ضخمة أسندت قيادتها إلى ثيوكتستوس^(٨)، الذي لم يثبت جدارته من قبل مما أثار تساؤلات عدة فقد سبق وأخفق في حملته الأولى ضد كريت عام ٨٤٣/٢٢٨هـ^(٩)، فما الداعي لتكليفه بهذه الحملة.

فمن الغريب أن ثيودورا وضعت ثقها الكبيرة فيه من جديد دون غيره من رجال البلاط ذوي الكفاءة العليا في سجلهم العسكري أمثال مانويل الذي كان له

(1) Bury, op. cit, p. 315.

(2) عبد المنعم ماجد: العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى؛ بيروت ١٩٦٦، ص ١٠٣.

(3) Ostrogosky..op. cit, p.196; Bury, op.cit, p. 315; Foord, op, cit, p. 231. أنظر أيضاً فازليف: العرب والروم، ص ١٨٥.

(4) ارشيباندوليس: القوى البحرية، ص ٢١٦: فليب حتى: العرب تاريخ موجز، ص ٢٠٢.

(5) Bury, op. cit, pp. 315-316. أنظر أيضاً فازليف: العرب والروم، ص ١٨٥.

(6) Jenkins, op. cit, p, p. 174.

(7) فيليب متى: العرب تاريخ موجز، ص ٢٠٢ انظر أيضاً: Ency de l' Isl ltd, 14, p. 145

(8) Symeon, op. cit, p. 157. وأيضاً فازليف: العرب والروم، ص ١٧٢.

(9) Jenkins, op. cit, p, p. 157. وانظر أيضاً ابن خلدون: العبر المجلد الرابع ص ٤٣٢-٤٣٣.

شهرة عسكرية عظيمة على عهد الإمبراطور ثيوفيل، وقد وافق ثيوكتستوس على الفور على أمل تحقيق مجد شخصي عجز عن تحقيقه في حملته الأولى^(١)، وليحقق رغبة ثيودرا في انتزاع أي مكاسب عسكرية على حساب المسلمين^(٢).

عموماً لقد استعدت ثيودرا لتجهيز جيوش ثيوكتستوس في الوقت الذي كان فيه المسلمون قد كثفوا من غاراتهم على أراضي بيزنطة حتى وصلوا بالقرب من موروبوتامون Mouropotomon عند مدخل البسفور^(٣)، وهناك أدركهم ثيوكتستوس بقواته واشتبك معهم وتمكنت الجيوش الإسلامية بقيادة عمر بن عبد الله الأقطع من إنزال هزيمة ساحقة بثيوكتستوس^(٤)، فهلك كثير من جند البروم وفر البعض الآخر ومنهم من انضم إلى جيوش المسلمين^(٥).

وهكذا فشلت تلك المحاولة البيزنطية للتأثر من المسلمين نتيجة ضرباتهم المتلاحقة للجبهة الشرقية للإمبراطورية^(٦)، وقد حاول بعض المؤرخين محو عار تلك الهزيمة عن ثيوكتستوس وإلقاء اللوم على عاتق برداس شقيق ثيودرا^(٧)، رغم أن برداس لم يشترك في حملة بيزنطة في موروبوتامون.. وقد حدد المؤرخون ذلك الاتهام في أن برداس هو الذي حرض جند البيزنطيين على الفرار للمعسكر الإسلامي، ومما أكد هذا الاتهام أن برداس سارع بمغادرة العاصمة بعد توجيه اللوم إليه دون أن يحاول تبرئة نفسه أمام شقيقته ثيودرا^(٨)، بل الأخطر من ذلك أن أهم معاوني برداس ويدعى ثيوفانس الفرعاني Theophanes Farghana كانت له اليد الطولى في المؤامرة التي أطاحت بثيوكتستوس بعد ذلك^(٩).

-
- (١) Ostrogosky. op. cit, p.157. أنظر أيضاً فازيليف: العرب والروم، ص ١٧٢.
(2) Symeon, op. cit, p. 654.
(٣) Ostrogosky. op. cit, p.196, cf also Symeon, op. cit, p. 654، وأيضاً فازيليف: العرب والروم، ص ١٧٣.
(4) Brehier, (L) veï et Mort de Byzance, Paris, 1969, p. 113. Foord, op. cit, p 232; Ostrogosky. op. cit, p.196.
(٥) Symeon, op. cit, p. 654. وأيضاً فازيليف: ص ١٧٤.
(٦) أومان: المرجع السابق: ص ١٥٩، ١٦٦. Jenkins, op. cit, p, p. 159.
(٧) Symeon, op. cit, p. 659, Ostrogosky. op. cit, p.196, Jenkins, op. cit, p, (٧) 159. وأيضاً فازيليف: العرب والروم، ص ١٧٤.
(8) Diaconi Leonis, Historia in partoloiae Graecae, Tomus, 117, Belgium, p. 840.
(٩) C.M.H., Vol. IV. 1. P. 108. وأيضاً أومان: الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٦٦.

ومما يؤيد ذلك أن ثيوكتستوس كانت له عدة محاولات من قبل للإطاحة ببرداس والحد من سلطانه بالقصر خاصة حين أصبح زميلاً لشقيقته ثيودرا في الوصاية^(١) على العرش وفي هذا الصدد ليس من المستبعد أن يكون لبرداس نفس دور الخديعة الذي لعبه ضد ثيوكتستوس أثناء وجوده في جزيرة كريت عام ٨٤٣ م^(٢) / ٢٢٨ هـ، فقد أسرع ثيوكتستوس بالعودة إلى العاصمة خوفاً من مكائد برداس له^(٣)، كأن الخديعة والدسيسة كانت سجلاً بين برداس وثيوكتستوس منذ أمد بعيد.

عموماً فقد استمرت المناوشات بين المسلمين والروم، وقد شعرت ثيودرا بعدم قدرتها على مواجهة المحاولات الإسلامية الدائمة للنيل من حدود بيزنطة خاصة وأن الإمبراطور ميخائيل الثالث حتى بعد بلوغه سن الرشد لم يكن الشخصية القوية التي يمكن أن تنهض بالقوة الدفاعية لبيزنطة فقد ظل غارقاً في اللهو والسكر والمجون ولولا أن الدولة كانت منظمة تنظيمياً دقيقاً لتحطمت حكومة الإمبراطورة أمام العريضة المبالغ فيها من قبل ميخائيل الثالث الذي بدا وقد فقد توازنه وأسلم زمام الأمور إلى صديقه باسيل المقدوني خاصة بعد أن تخلص من خاله برداس بأن ذبحه لكي يحكم منفرداً ولكن دون جدوى^(٤).

ويلاحظ أن البيزنطيين قد اعترفوا أمام أنفسهم بعدم قدرتهم على مواجهة المسلمين سواء على الجبهة الشرقية مع الخلافة العباسية أو مع مسلمي كريت وصقلية باعتبارهم الجانب الأضعف حيث لقوا هزائم متوالية على أيدي المسلمين فتيقنوا أنهم بحاجة إلى تدعيم دفاعاتهم في هذه المناطق، ورغم هذا فقد استمرت حالة التوتر قائمة بين الجانبين وتمثلت في الغارات المتبادلة صيفاً وشتاءً وراح ضحيتها الكثير من المحاربين مما دعا إلى تهدئة الأحوال وإزالة التوتر والتقاط الأنفاس لكسب جولات عسكرية أخرى، في الوقت الذي كان فيه الخليفة هارون الواثق يؤثر الهدوء والعزلة ولم يكن راضياً عن سياسة الأغلبية

(١) ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٠، ص ١٧٤٥، ابن الأثير: المصدر السابق، ص ٤٢٨-

٤٢٩.

(٢) Ostrogosky, op. cit, p.196, Jenkins, op. cit, pp. 158-159. وأيضاً عبد

العزيز سالم (دكتور): العصر العباسي الأول، الإسكندرية، ١٣٩٨، ص ٢٣٩.

(٣) البندون: يفتحين وسكون النون والذال هملة وواو ساكنة هي قرية بينها وبين طرطوس يوم واحد مات فيها الخليفة المأمون ونقل ردفن في طرطوس وللمزيد انظر ياقوت:

المصدر السابق، ج ١، ص ٤٣٠.

(٤) الشامي: المرجع السابق، ص ١٧٠.

ضد بيزنطة وليس له سلطة فعلية عليهم لوقف غاراتهم. فانغمس هارون في مشاكله الداخلية^(١)، وأسبابها العديدة التي استعرضنا آثارها في بداية هذا البحث ويبدو أن الخلافة العباسية قد قررت وقف أي نشاط عسكري ضد بيزنطة لدرجة أن الخليفة عزل واليه على الثغور والعواصم وهو أحمد بن سعيد الباهلي^(٢) بسبب خروجه في شاتية ضد الروم وتصدى له أحد بطارقة الروم ورغم أن عدداً من سفنه قد غرق في نهر البذنون^(٣) بسبب العواصف الشديدة والثلوج، إلا أنه غنم غنائم كثيرة منهم وعاد بباقي جيشه فرد عليه الوثائق بعزله وعين مكانه نصر بن حمزة الخزاعي^(٤).

ويرجح عدد من المؤرخين أن الخلافة العباسية لم ينقصها آنذاك الكفاءة العسكرية لخوض الكثير من المعارك والجهاد ضد البيزنطيين ولكن أصبح شغلهم الشاغل ذلك النفوذ التركي المتزايد داخل الخلافة^(٥)، فلم يشاءوا أن يزيد الطين بلة بعبء جديد من الصراع الخارجي لذلك وصرفوا النظر نهائياً عن معاداة الروم وقرروا فتح باب المفاوضات وتبادل الأسرى.

وفي هذا الصدد يشير بعض المؤرخين المحدثين أن ثيودورا هني التي عرضت عقد هدنة وصلحاً بين الطرفين يتم فيه تبادل الأسرى^(٦)، في حين يرى البعض الآخر كما سبق القول أن الظروف التي ألمت بالخلافة هي التي أجبرت الخليفة الوثائق آنذاك على طلب الهدنة، في حين يرى فريق ثالث أن طول الصراع وتزايد عدد الضحايا والأسرى أوجد رغبة قوية لدى الطرفين على وقف دمار الحرب على الحدود^(٧)، ناهيك عن الالتزامات المالية الضخمة التي

(1) Bury, op. cit, pp. 315-316.

(٢) Bury, op. cit, p. 274; Ostrogosky. op. cit, p.196. Foord, op, cit, p. 232. وأيضاً فازيليف: العرب والروم، ص ١٧٥.

(٣) Finlay, op. cit, p. 174. وكذلك إبراهيم العدوي : الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، ص ٦٧.

(4) Vasiliev, a, History of the Byzantine Empire, Madeson, 1986, pp. 27-274.

(5) Bury, op. cit, pp. 234, 275; Ostrogosky. op. cit, p.196.

(٦) تشير المصادر إلى أن أول فداء للأسرى كان عام ١٢٩ هـ على عهد الخليفة أبو جعفر المنصور ولكن أعقب كل فداء حروب عديدة بين الطرفين ما عدا عهد هارون الوثائق للمزيد انظر الطبري: المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٨٥؛ ماجد: العصر العباسي الأول، ص ٣٢.

(٧) ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٠، ص ١٧٤٥؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٦، ص ٨٨؛ محمود سعيد عمران: المرجع السابق، ص ١٣٦.

كان يدفعها الطرفان من جراء هذه الحروب^(١)، في حين يرى انكثيرون أن أضرار الحروب كانت أوضح على بيزنطة منها على الجانب الإسلامي بل يرى البعض أن مشاكل الخلافة لم تكن من الخطورة والقوة ولعل ذلك يفسر ويؤكد أن بيزنطة هي التي كانت بادئة بطلب الهدنة وتبادل الأسرى.

أما علمية تبادل الأسرى فقد كانت تسير ضمن خطة وقواعد محكمة تبدأ بسفارات يشترك فيها ولاية الثغور والمناطق الأكثر عرضة للحرب فإذا نجحت تلك المفاوضات كانت تتم عملية الفداء وتبادل الأسرى^(٢)، وفي الحقيقة فإن عملية تبادل الأسرى لم تكن جديدة العهد على تاريخ الخلافة العباسية فقد سبق ذلك أكثر من فداء للأسرى ولكن جميعها كانت في شكل هدنة مؤقتة سرعان ما تشتعل بعدها الحرب^(٣)، عموماً لقد بدأت مراسم تبادل الأسرى ١٠ محرم عام ٢٣١هـ/ ١٦ سبتمبر ٨٤٥م^(٤)، وقد ذكرت المصادر الإسلامية تفاصيل هذا الفداء وشروطه، فقد أورد اليعقوبي والطبري أن البيزنطيين كانوا هم البادئين بإرسال سفارة إلى المسلمين بتكليف من الإمبراطور ميخائيل الثالث وطلب إحلال السلام محل الحرب والتفاوض بشأن تبادل الأسرى وقد رحب الخليفة على الفور^(٥)، فقد أرسل الخليفة الواصل آنذاك سفيره أحمد بن قحطبة^(٦) إلى الإمبراطور البيزنطي لمعرفة مدى استعداد بيزنطة لتنفيذ هذا الفداء، والتعرف على العدد الحقيقي للأسرى وقد اتضح له أن عددهم حوالي ثلاث آلاف رجل وخمسمائة امرأة وصبي وتم الاتفاق بين الجانبين على إجراء عملية الفداء عند نهر اللامس^(٧)، حيث تجهز رجل من عند المسلمين ويسمى الواصل أحمد وهو

(١) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج ٣، ص ٢٠٧؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٥، ص ٢٨٦-٢٨٧.

(٢) الطبري: المصدر السابق، ج ٩، ص ١٤٢ وأيضاً Bury, op. cit, p. 275.
(٣) نهر اللامس: هي قرية على شط بحر الروم من ناحية ثغر طرطوس تم عليه الفداء وكان الروم يقدمون في البحر فيكونون في سفنهم ويقع الفداء، انظر ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٥، ص ٩؛ فازيليف: العرب والروم، ص ١٧٢، وأيضاً Ostrogosky. op. cit, p. 196

(٤) اليعقوبي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٠٧؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٥، ص ٢٨٦؛ المسعودي: المصدر السابق، ج ٤، ص ٦٥.

(٥) Ostrogosky. op. cit, p. 196; Bury, op. cit, p. 276. أنظر أيضاً فازيليف: العرب والروم، ص ١٧٦.

(٦) فازيليف: العرب والروم، ص ١٧٧؛ الطبري: المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٨٦.
(٧) الطبري: نفسه، ص ٢٨٧؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٦، ص ١٨٨، ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٧٥٤-٧٥٥؛ عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ٢٣٨-٢٣٩.

حفيد مسلم بن قتيبة ومعه أحد الأتراك وهو الحضي خاقان الخادم^(١)، في حين أشرف على عملية الفداء من الجانب البيزنطي قائدان هما أنقاس ولمستوس^(٢)، ويقال إن عدد المسلمين كان من الضخامة بحيث قلق المبعوثان البيزنطيان فطلبوا عقد هدنة مع خاقان الخادم مدتها أربعين يوماً بصورة تكفي لإرجاع الأسرى إلى بلادهم^(٣)، وفي ١٦ سبتمبر ٨٤٥م/١٠ محرم ٢٣١هـ، وهو يوم عاشوراء كما ذكر الطبري وابن الأثير^(٤)، بدأت عملية الفداء بإظهار حسن النوايا حيث أطلق البيزنطيون سراح عبد الله الطرطوسي وكان من أشرف طرطوس وأسره البيزنطيون في إحدى غزواته منذ ثلاثين عاماً على أراضيهم فكانت عودته سليماً ومعزواً إلى بلاده لها رد فعل طيب على الجانبين كما تبع ذلك إطلاق سراح عدد كبير من وجوه الأسرى المسلمين^(٥)، وقد انفرد الطبري بذكر هذه الرواية بإسهاب من بين جملة المصادر رغم أن هذه التفاصيل لم ترد في أي من المصادر البيزنطية، ويشير فازيليف أن المسلمين وقفوا على الجانب الشرقي للنهر بينما وقف البيزنطيون على الجانب الغربي وفجأة ظهرت خلافت حادة بين الطرفين^(٦)، حيث رفض الروم فداء العجزة من النساء والرجال أو فداء الأطفال^(٧)، وكاد أن يفشل الاتفاق واستمر الخلاف أياماً إلى أن اتفقوا على فداء رجل برجل^(٨)، أو نفس بنفس دون النظر للسن^(٩)، وقد كان عدد أسرى المسلمين ضخماً لدرجة أن المسلمين اشتروا من يباع في بغداد والرقعة من العبيد الروم ولم يكف ذلك، فلم ير الخليفة العباسي إلا أن يخرج كل من عنده من نساء الروم في بلاطه الخاص حتى تتقارب أعداد أسراه مع أسرى الروم^(١٠)، وإلى أن اكتمل العدد وتساوى بين الطرفين يشير الطبري إلى أن الواثق أمر بتكوين

(١) فازيليف: العرب والروم، ص ١٧٧.

(2) Ostrogosky. op. cit, p.196.

(٣) فازيليف: العرب والروم، ص ١٧٧؛ وأيضاً Bury, op. cit, p. 279; Finlay, op. cit, p. 1574.

(٤) فازيليف: العرب والروم، ص ١٧٧.

(٥) الطبري: المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٨٧.

(٦) فازيليف: العرب والروم، ص ١٧٧.

(7) Ostrogosky. op. cit, p.196.

(٨) فازيليف: العرب والروم، ص ١٧٧؛ وأيضاً Bury, op. cit, p. 279; Finlay, op. cit, p. 1574.

(٩) فازيليف: العرب والروم، ص ١٧٧.

(١٠) الطبري: المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٨٧.

جماعة من يحيى بن آدم الكرخي البغدادي وجعفر بن الحذاء وطالب بن داود لامتحان الناس في مسألة خلق القرآن فمن نفى قدم القرآن ورؤية الله في الآخرة افتدى على الفور ويوزع عليهم أموال في الحال وقيل إنه كان يمنح كل أسير عند الفداء دينارا، أما من لا يرفض نفى رؤية الله وقدم القرآن كان يترك للروم ولا يفتدى^(١).

وقد ذكر المسعودي^(٢) في مروج الذهب أنهم كانوا كثيرين، حيث بلغ عدد من افتدى من المسلمين أربعة آلاف وخمسمائة شخص^(٣)، وكانت الطريقة المتبعة في الفداء أن يقف الطرفان كما سبق القول على ضفتي نهر اللامس ويجعلوا عليه قنطرتين واحدة للروم والأخرى للمسلمين فيطلق الروم أسيراً ممن عندهم فيطلق المسلمون في نفس الوقت أسيراً رومياً فإذا اقترب المسلم من المسلمين صاح الله أكبر فيرد عليه باقي المسلمين بالتكبير كذلك، ويشير فازيليف أن الروم فعلوا مثلهم في التكبير وقد أكد ابن الأثير ذلك^(٤).

وقد تميز هذا الفداء أيضاً بإطلاق الروم سراح شخصية هامة جداً في التاريخ الإسلامي وهو مسلم بن أبي مسلم الجرمي وكان على دراية كبيرة بالروم وبلادهم وله مصنفات في أخبار ملوكهم وذوي المراتب العليا منهم كما كان على دراية بمسالك وطرق الروم وأفضل أوقات الغزو والغارات عليهم ومن جاورهم من الممالك من برغان والبرغر والصقالية^(٥)، وغيرهم، حتى يقال إن العالم الجغرافي بن خرداذبة استمد الكثير من المعلومات الجغرافية عن آسيا الصغرى من مسلم الجرمي وصارت معلوماته أساساً لكل التأليف الجغرافية في العصور الوسطى^(٦).

(١) فازيليف: العرب والروم، ص ١٧٧.

(٢) الطبري: المصدر السابق، ج ٥، ص ٨٨؛ فازيليف: العرب والروم، ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٦، ص ٨٨-٨٩.

(٣) المسعودي: مروج الذهب، ج ٤، ص ٦٥، ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٦، ص ٨٨ أنظر أيضاً: Bury, op. cit, p. 275; cf. also: Ostrogosky. op. cit, p. 196.

(٤) ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٧٥٤-٧٥٥؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٧٥٤-٧٥٥؛ عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص ٢٣٧-٢٣٩.

(٥) ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٦، ص ٨٨؛ فازيليف: العرب والروم، ص ١٧٨.

(٦) الصقالية: هم عدد منهم النصاري ومنهم المجوس، يعبدون الشمس لوهم بحر يجري من المشرق إلى المغرب يتصل ببحر البلغار ولهم أنهار كثيرة وعلى قدر كبير من التحضر والمهارة في كثير من الفنون وللمزيد عنهم أنظر: المسعودي (ت ٣٤٥) أبو الحسن علي بن الحسين: أخبار الزمان/ الطبعة الخامسة، بيروت ١٩٨٣، ص ٩٢-٩٣.

وقد أشارت المصادر العربية أن كثيرين من الأسرى من أهل الذمة حيث لم يفرق هارون الوثائق بين مسلم وغير مسلم وافتدى الجميع ولعل هذا ينفي الكثير من الاتهامات التي وجهت للوثائق بشأن عدم فدائه لمن لا يقول بخلق القرآن من المسلمين فإذا كان هذا موقفه المتسامح من أهل الذمة وكيف حرص على فدائهم فكيف يكون هذا هو موقفه من جماعة المسلمين مهما كان حجم الخلاف في الرأي معهم اعتقد أنها مبالغة من خصوم هارون الوثائق لإدانته الشديدة في قضية خلق القرآن وخلافه مع أحمد بن نصر الخزاعي وأتباعه ومؤيديه وقد كانوا كثيرين في بغداد وسامراء^(١).

أما عن مدة الفداء فقد اختلفت المصادر العربية في ذلك فيذكر الطبري أنها كانت سبعة أيام في حين ذكر المسعودي أنها كانت عشرة أيام^(٢).

ولو حاولنا تقييم عملية الفداء نجد أن لها بعداً حضارياً عظيماً إذ أوجدت فرصة للاحتكاك الحضاري بين المسلمين والبيزنطيين وأوجدت عملية تأثير وتأثر بين كلا الجانبين.. خاصة أن الأسرى لدى الطرفين كانت تتم عملية تجديد دقيقة لمهاراتهم وقدراتهم ففي بيزنطة كانوا يوزعون على مختلف المصانع والحرف للاستفادة من خبراتهم وكانت لهم دار خاصة تسمى "دار البلاط" وتشتمل على غرف كبيرة يقيم فيها الأسرى أما عظماء الأسرى فيقال إنها كانت لهم دار خاصة بالقرب من قصر الإمبراطور البيزنطي ليكونوا تحت رعايته وإشرافه بدليل أن عبد الله الطرطوس الذي عاد بعد ثلاثين عاماً من الأسر عاد معززا مكرما متأثراً بكثير من عادات ومناسبات البيزنطيين^(٣)... وتشير المصادر إلى أن هؤلاء الأسرى تمتعوا بمعاملة طيبة من قبل السلطات البيزنطية واحترمت عقيدتهم ولم يكرهوا على شرب الخمر أو أكل لحم الخنزير كما لم يتعرضوا لأي نوع من التعذيب وزاولوا صنوفاً من التجارة والحرف والألعاب المرحية، وكانت تقام مباريات في سباق الخيل بين المسلمين والبيزنطيين وكان

(١) إبراهيم العدوي: المرجع السابق ص ٩٨.

(٢) أنكر ابن كثير ما تردد حول موقف الوثائق من الأسرى الذين رفضوا القول بخلق القرآن، وقال إن مسألة الفداء لم يكن لها علاقة بقضية خلق القرآن انظر ابن كشي: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٧٥٥. في حين أكدها اليعقوبي والطبري والسيوطي وابن الأثير وللمزيد انظر اليعقوبي: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٠٧؛ الطبري: المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٨٨؛ المسعودي: المصدر السابق، ج ٤، ص ٦٥-٦٦؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٣٨٧.

(٣) الطبري: المصدر السابق؛ نفس الصفحة؛ المسعودي: المصدر السابق نفس الصفحة.

الروم يحضرون لمشاهدة هذه المباريات بل كان الإمبراطور يمنح الهدايا للمسلمين بعد فوزهم في هذه المباريات، وبالمثل فقد لقي الأسرى البيزنطيون معاملة طيبة في ديار الإسلام^(١).. وأعد لهم في القاهرة مكاناً خاصاً يسمى "المناخ" خاص بالأسرى الرجال في حين يوزع الأطفال والنساء على الخليفة وكبار رجال الدولة^(٢).

وقد تطورت العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين في هذا الفترة، فقد تم إرسال بعثات علمية للبحث والدراسة وتبادل الكتب والمعارف^(٣) مما كان له آثار حضارية متميزة لدى الطرفين.

وبعد ورغم أن السياسة الخارجية للبيزنطيين آنذاك قد اتسمت بالاعتدال والسكينة مع المسلمين، إلا أن هذا لم يوقف استفحال خطر الضعف والتفكك في جسد الدولة العباسية فهذه كانت فترة أفول نجم العباسيين العظماء وزيادة تغلغل العنصر التركي وهيمنته على كل مقاليد السلطة والسيادة داخل وخارج الدولة.. بالإضافة إلى ما نتج عن مشكلة خلق القرآن من آثار سلبية خطيرة شغلت الخلفاء عن الجهاد ووقفوا معادياً لنشاط الأغلبية العسكري ضد الروم، وفتح الباب للكثير من الفتن والصراعات خاصة أنه لم يعين ولياً لعهد بسبب تدخل الأتراك في هذه القضية^(٤)، أقصد أنه تضافرت على الخلافة الكثير من العوامل التي أضعفت الدولة وهزت كيائها، مما أعطى في النهاية صورة لا تتبض بالحيوية والنشاط والاحتكاك العسكري واستعراض القوى الإسلامية ضد البيزنطيين وهذا ليس فقط على الصعيد الإسلامي بل أيضاً على المستوى البيزنطي فقد كان انغماس الإمبراطور ميخائيل الثالث في ملذاته وشهواته له أثر خطير على تقاعس وقصور سياسته الخارجية تجاه المسلمين، فلم ترغب بيزنطة في تفجير الحرب على الحدود الشرقية في آسيا الصغرى وكرست جهودها ضد المسلمين في كريت وصقلية الذين باتوا يشكلون خطراً جسيماً على أمن بيزنطة وتزايد الصراع على السلطة بين برداس وثيوكتستوس واضطراب

(١) إبراهيم العدوي: الإمبراطورية البيزنطية، ص ٩٥؛ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج ٢، ص ٤١٨.

(٢) إبراهيم العدوي: المصدر السابق، ص ٩٦-٩٧.

(٣) المرجع السابق، ص ٩٦؛ حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ج ٢، ص ٤١٨؛ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، القاهرة، ص ١٧١-١٧٢.

(٤) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص ١٠٦-١٠٧، المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ١٥٢.

شخصية ميخائيل الثالث وعبثه ومجونه كل هذا ألقى بظلاله على العلاقات السياسية بين الطرفين وفرض الصلح والسلام نتيجة هذه الظروف.

ولم يخل عهد ميخائيل الثالث من الصراع والجدل في كثير من أمور الدين المسيحي بين الكنيسة الشرقية وكنيسة روما برئاسة البابا نيقولا الأول، وربما كان للبلاغ دور في زيادة هذا الصراع بسبب تحالفها مع الفرنجة، ووجود فريق يؤيد الانضمام للكنيسة الغربية لذا اشتد ميخائيل الثالث في هجومه على البابا وأصدر في عام ٨٦٧م قراراً ببطالان كنيسة روما، وحرمان البابا نيقولا الأول^(١)، وأعلنت الكنيسة الشرقية رفضها المطلق لأي محاولات للتدخل في شئونها من قبل كنيسة روما، الأمر الذي أدى إلى تفاقم الخلاف بين الكنيستين^(٢)، لولا مقتل ميخائيل الثالث فجأة على يد باسيل المقدوني^(٣)، فقد انشغلت بيزنطة بالثورة التي حدثت داخل القصر الإمبراطوري من أقرب المقربين للإمبراطور وهو أحد قواده باسيل المقدوني الذي كان يتطلع دائماً للهيمنة على أمور البلاد ولم يعجبه التحسن والطموح الكبير الذي طرأ على شخصية ميخائيل الثالث ونجاحاته الكبيرة على كثير من دول أوروبا الشرقية بل ضد البابوية في روما^(٤).. في حين يشير بعض المؤرخين أن شخصية ميخائيل الثالث اتسمت بالتغير المستمر وكان يعاود الشراب بين الحين والآخر ويظهر الكثير من الشك في أقرب المقربين إليه مما دفع باسيل المقدوني وهو الذي استخدمه ميخائيل الثالث من قبل في قتل خاله برداس إلى تدبير مؤامرة دنيئة لقتل ميخائيل الثالث الأمر الذي أدى إلى حالة من الاضطراب السياسي داخل بيزنطة - بل داخل القصر الإمبراطوري نفسه وحدثت مرحلة انتقالية في السياسة الخارجية لبيزنطة ترتب عليها حالة من الهدوء النسبي بين الكنيسة الشرقية والغربية وأيضاً في السياسة الخارجية للبلاد^(٥).

(١) وللمزيد أنظر: أنكر ابن كثير المصدر السابق، ج ١٠، ص ٣٠٢-٣٠٨، ماجد؛ المرجع السابق، ٤٣٠، محمد الخضري: المرجع السابق، ص ٢٤٩-٢٥١.

(٢) اختلفت المصادر حول يوم وفاته ولكنها اتفقت في أنه في شهر ذي الحجة سنة ٢٣٢هـ فقيل إنه مات يوم ٦ أو ١٠ أو ٢٣ من ذي الحجة سنة ٢٣٢هـ وللمزيد أنظر المسعودي: المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٩٠.

(٣) ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٧٥٣، الطبري: المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٩٠-٢٩١؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٦، ص ٩٢.

(٤) للمزيد انظر الطبري: ج ٥، ص ٢٩١.

(٥) وللمزيد انظر ابن كثير: المصدر السابق، ج ١٠، ص ٧٥٣-٧٥٥؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج ٦، ص ٩٢.

